مراحل الفكر البشري
ما قبل وإلى عشرين قرنا وقرن

الباحث مـحمد دام بجان
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاضي عياض، مراكش
المغرب

عاش الإنسان بين ماضيه وحاضره مراحل مليئة من أحاديث وأفكار متعددة الألوان منذ سيرته الأولى، وكان الفكر البشري بهذه السيرورة يتميز بالفضول المعرفي، ولما أدرك الإنسان بأنه كائن عاقل قبل أن يكون كائنا بيولوجيا؛ حاول استخدام عقله في مختلف القضايا، ومن بين تلك القضايا المعرفية التي لا تخرج عن دائرة **مراحل الفكر البشري، أو** كما سماها أوكست كونت (Auguste Comte 1798-1857) **"القانون العام للتطور الفكر البشري"**(1) . ما قبل الميلاد من حيث لا نستطيع الذكر له من الشهر والسنة، واليوم و الوقت، وإنما نقرب ذلك تقريبا: بعد عشرين قرنا وقرن من بداية القرن الواحد حيث ولدت فيه كلمة الله و رسوله المسيح عيسى ابن مريم، وإلى القرن الواحد و العشرين، حيث تم تدوين فيه هذه المقالة . وهي:

أ/ **المرحلة اللاهوتية** أو (الأسطورية-الخيالية)

ب/ **المرحلة الميتافيزيقية** أو (المجردة)

ج/ **المرحلة الوضعية** أو (العلمية)

من خلال هذه المراحل أو الحالات الثلاث لأوكست كونت، إنه يرى أن: "الفكر البشري يستعمل بطبيعته في كل ما يعرض له، وفي كل بحث يقوم به، طرقا متتابعة ثلاثة تختلف فيما بينها و تتعارض على الرغم من أن السابق منها يؤدي إلى اللاحق بالضرورة. ومن هنا ثلاثة أنواع من الرؤى التي تتناول الظواهر، ينفي كل منها الآخر: الأولى تشكل نقطة انطلاق الفكر البشري، والثالثة تشكل نهايته ومبتغاه، أما الثانية أو الوسطى فهي مرحلة انتقالية"، فما هي تلك اللحظات التي بها يتبين لنا واقع كل مرحلة تلو أخرى؟

أ / المرحلة اللاهوتية:

1- تعريف علم اللاهوت: إن المفهوم اللغوي لكلمة اللاهوت يقابله بالإنكليزية **Theology** {**ثيولوجي**} وهو اشتقاق يعود إلى القرن السادس عشر للميلاد من اليونانية واللاتينية معاً theo-logia: أي «علم الآلهة، قصص الآلهة، شؤون الآلهة» وأن اللاهوت على وزن فعلوت وهو من أوزان الصيغة المبالغة مثل: جبروت، ملكوت، ناسوت...ودخل المصطلح اللغة العربية في عصر التدوين مع حركة الترجمة التي قام السريان بجزء كبير منها.

واصطلاحا هو: العلم الذي يبحث في العقائد الدينية والقضايا الإلهية وطبيعة الله وصفاته ومعاملاته مع البشر.

وبهذا المعنى الأخير استخدمت الكلمة في الأدب اليوناني القديم وفي الأساطير، إلى أن تحدد معناها دينياً في كتاب «أنساب الآلهة» (1) عند هِسيودُس، ثم انتقلت إلى الفلسفة .وفي سياق تطوراتها زمنياً تحول معناها إلى العلم الإلهي، والحكمة النظرية، والعلم

الأعلى؛ لأنه يبحث في الله وصفاته، وتعني أيضاً الفلسفة الأولى؛ لحصولها من العلة الأولى «الله»؛ والعلم الكلي، لأنه علم الكليات الشاملة لجميع الموجودات (العالم والإنسان والآخرة) وعلاقتها بالله .ويرادفه مذهب التوحيدmonotheism ، ومذهب الربوبيةdeism ، ويقابله عند المسلمين علم الكلام أو (علم أصول الدين –الفقه).

ولكي نعرف كيفية تعبد الإنسان الله بدين وضعي في المرحلة اللاهوتية؛ يمكننا التوقف حول دراسة أبرز أديان العالم القديم الخمسة: **دين المصريين–دين الهنود–دين الصين–دين الفرس–دين اليونان.**

3/ أبرز أديان العالم القديم في المرحلة اللاهوتية الأولى، دين المصريين كأنموذج:

– دين المصريين:

أشرقت شمس الحضارة صباح فجر مصر قبل الميلاد بأربعين قرنا، وحاول أهلها الربط بين حضارتهم والدين، وقاموا بتقديس الكلب، والقط، والتمساح، والبقرة، وابن آوى...، واستطاع الملوك والكهنة تطوير الآلهة، ويبتعدوا آلهة جديدة، ورأوا اتصال الآلهة بالحياة البشرية، لأن الآلهة في نظرهم تعين الإنسان؛ فمزجوا في مفاهيمهم بين صورة الإنسان وصورة الإله، فالجسد إنسان والرأس هو الله، وكذلك جعلوا كل رأس حيوان يتمثل بإله منسوب من شيء طبيعي، والمثال على ذلك: هم جعلوا رأس إله الشمس رأس طائر. وهذا دليل على تعدد الآلهة في دين المصريين.

وإن للدين المصري القديم مصادر، كانت ومازالت هذه المصادر يحاول العلماء الكشف عن رموزها، ومن تلك المصادر المشهورة والمحققة كما تم إشارتها صاحب كتاب "موسوعة الأديان والنحل"(2) ، هي:

1–**أوراق البردي:** "نبات يظهر على شاطئ النيل، أوراقه عريضة"

2– **نصوص الأهرام:** إن تلك النصوص مكتوبة باللغة الهيروغليفية، على حيطان الممرات والدهاليز، ومن الممكن تصنيف محتويات النصوص إلى خمس موضوعات:

(1) **فروض جنائزية تتلى عند القبر بعد دفن الميت.**

(2) **تعاويذ دينية.**

(3) **تصوير للعبادة والطقوس.**

(4) **توسلات تلقى نيابة عن الملك.**

(5) **أساطير دينية متعددة.**

3–**كتاب الموتى:** وكانوا يكتبونه على ورق أو ينقشونه على حجر، ويضعونه تحت رأس الميت أو بجواره، اعتقادا منهم بأن ذلك سيساعد الميت على السعادة ويؤدي إلى عفو الله ومغفرته.

ونال هذا الكتاب اهتمام علماء الآثار والأديان لخطورة موضوعه إلا أنه لم يُطبع كله، ورغم من ذلك قد تم الطبع أجزاء كثيرة

تحت اسم ''نصوص التوابيت''

4-**نقوش الأحجار**: كتب المصريون في تلك الأحجار كلما يتعلق بهم بما فيها: حروبهم، وعلاقاتهم بغيرهم، وأنواع طعامهم، وألوان شرابهم... ''ولذلك يعيش العالم المعاصرة حياة المصريين القديمة''

عقيدة التوحيد عند المصريين:

مع وجود تعدد الآلهة في اعتقاد المصريين القديم، ظهرت في فترة متأخرة، نظريات تتحدث عن الإله الواحد، أو الإله الكبير قبل الميلاد بأربعة وثلاثين قرنا(1) .

وقد تصور البعض أن الملك ''أخناتون'' هو أول من دعا إلى التوحيد في مصر القديمة منذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد حيث يتولى الملك العرش، لكن النصوص المحفوظة في الآثار شهدت على أن التوحيد وجد في مصر قبل أخناتون بعشرين قرنا على الأقل.

وفيما يخص حول الدعوات الإلهية الصحيحة ظهرت في مصر القديمة، حسب ما أخذناه من كتاب ''الأديان في كفة الميزان ''(2) أن نبي الله إدريس عليه السلام هو الرسول المرسل إلى المصريين القدماء، وبعده من السنين انحدرت العقيدة المصرية إلى الشرك و تعدد الآلهة.

ومما لا بد ذكره في هذه المرحلة، أن المرحلة اللاهوتية قد بدأت بتعدد الآلهة وانتهت بوحدانية الله، وبتطورها مع الزمن، تقمص علم اللاهوت قميص الأديان السماوية بما فيها:

الدين المسيحي:

ظهرت فلسفات جديدة (الأفلاطونية) في أفق الدين المسيحي في القرن الأول لانتشار المسيحية، وأدت هذه الظاهرة إلى بداية تطور علم اللاهوت المسيحي christology في سياق فكرة التمييز بين طبيعة الألوهية divine وطبيعة الناسوتية human في شخص السيد المسيح. مع حل ألغاز جميع القضايا والحقائق الدينية على أسس منطقية عقلية مستفيدين من أسس الفلسفة اليونانية.

ومن أبرز علماء اللاهوتيين المسيحيين: كليمنت Clement الإسكندري (150-215) وديونيسيوس Pseudo-Dionysius صاحب كتاب «اللاهوت الصوفي» (1)والقديس أوغسطين صاحب الكتاب «مدينة الإله»(2)

ومع مرور عصر التنوير في منتصف القرن السابع عشر، ترحبت الكليات والجامعات بعلم اللاهوت فأصبح تخصصا كبقية العلوم، وتم تقسيمه إلى أربعة أقسام رئيسة هي: علم اللاهوت التفسيري exegetical وعلم اللاهوت التأريخي historical وعلم اللاهوت المنظم systematical وعلم اللاهوت العملي.practical

وتناول القسم الأول تحليل محتويات الكتاب المقدس والتحقيق في أصولها، وبحث الثاني في تطور علم اللاهوت المسيحي منذ عهد آباء الكنيسة حتى الزمن الحاضر، أما الثالث فقد تناول اللاهوت المذهبي الاعتقادي أو الفلسفي وموضوعاته، الله والثالوث، والعناية الإلهية، والإنسان، والتبرير، والعلم الأخر وeschatology، وعالج الأخير اللاهوت الأخلاقي الكنسي ecclesiology والرعوي pastoral الطقوس والتبشيرmissiology

فلم يكن هذا الفن مقصورا بالمسيحي فقط، بل فله في غيره مآرب أخرى، كما كان لهـ ظهور نشط في الفكر اليهودي، تمثل في تعاليم رجال الدين اليهودي والتعليقات التوراتية اليهودية commentaries، وقدم الفيلسوف اللاهوتي موسى بن ميمون خير مثال على ذلك في كتابه «دلالة الحائرين.(3)»

وعلى هذا الأساس، تناول علماء الكلام (المعتزلة وغيرهم) وفلاسفة الإسلام أمثال ابن رشد بعض الموضوعات الإلهية في سياق نقده للغزالي في كتابه «تهافت التهافت، (4)»وكذلك في مؤلفه» فصل المقال في ما بين الحكمة والشريعة من الاتصال «(5)

ب/ المرحلة الميتافيزيقية:

1. تعريف الميتافيزيقا:

إن مصطلح الميتافيزيقا لغة هو: مشتق من الكلمة اليونانية المركبة من: ميتا Meta بمعنى {ما وراء} وفيزيقا Physika بمعنى {الطبيعة} إذن معناه هو {ما وراء الطبيعة}

وأما اصطلاحها هو: *نظر في الأسباب الأولى والمبادئ الأولى* أي:(دراسة الوجود بما هو الموجود) كماأشاره أرسطو من كتابه مابعد الطبيعة، وظهر هذا المصطلح في نهاية القرن الأول قبل الميلاد(1) من تلميذه *أندرونيكوس الروديسي.

ومن خلال هذا المفهوم حول الميتافيزيقا، نحاول الولوج إلى تلك الأطروحات الميتافيزيقية التي تم طرحها من قبل الفلاسفة اليونانيين الذين عاشوا حوالي (600 قبل الميلاد) بمن فيهم الحكماء السبعة(2)، ومن بين تلك الأطروحات التي تمثل قلب الميتافيزيقا، أو جوهرتها، أو ماهيتها، أو كينونيتها...، هي مسألة أصل الكون (الوجود)، ومن بين هؤلاء الحكماء الجهابذة الذين قرعوا أبواب أصل الكون من المدرسة الفلسفية الأيونية، هم: **طاليس (624–546ق.م)** و**انكسمندروس (610–547ق.م)** و**انكسيمانيس (588–524ق.م)** و**هراقليطوس (540–475ق.م)**.

2– الأطروحات الميتافيزيقية حول أصل الوجود(الكون):

– طاليس (624–546ق.م): هو مؤسس المدرسة المليطية التي كانت لها نظرية في مبحث هام من مباحث الفلسفة وهو "مبحث الوجود Ontology"، وكان أول من أراد تحديد المبدأ الأول كعلة الأولى للأشياء، فحدد هذه العلة بالماء قائلا:

أن الماء هو المادة الأولى والجوهر الأوحد الذي تتكون منه الأشياء(3).

ونجد أن هذه النظرية المتافيزيقية، قد بناها طاليس على حجة: (إن النبات والحيوان يتغذيان بالرطوبة، ومبدأ الرطوبة الماء، فما منه يتغذى الشيء فإنه يتكون منه بالضرورة، ثم إن النبات والحيوان يولدان من الرطوبة حيث الجرائم الحية رطبة، وما منه يولد الشيء فإنه يتكون منه بالضرورة.) (4)

– **انكسمندروس (610–547ق.م)**: هو صاحب نظرية ***اللامتناهي***، وقال أنه هو المبدأ الأول لأصل الكون، وهذا المبدأ عنده يتجاوز المادة بحيث لا يمكن تحديده، لذلك سماه *اللامتناهي* حيث لا يمكن تعيينه من حيث الكيف، ولا تحديده من حيث الكم، بل هو مزيج من الأضداد جميعا، كالحار والبارد، واليابس والرطب وغيرهما.

وهذا اللامتناهي، أزلي لازمن له، تصدر عنه كل السماوات والعوالم الموجودة، والحركة الأزلية...، بل هو أصل العالم.

. **انكسيمانيس (588–524ق.م): مؤسس المدرسة الأيونية**، ولقد تأثر من كبيرهم طاليس ثم أنكسمندروس، واختار *الهواء* كمبدأ الأول لأنه ألطف من الماء ولا يفتقر مثله إلى قاعدة كما أنه أسرع حركة وانتشار امن الماء...، ثم يكون أكثر تحقق المعنى اللامتناهي، فهو تأثر إلى حد كبير من طاليس في القول بمبدأ واحد لوجود محدود ومحسوس ومتجانس، كما تأثر بقول أنكسمندروس إذ وصف مبدأ الهواء بالامتناهي كما تم إشارة إلى ذلك الدكتور مجدي السيد أحمد كيلاني.

– هراقليطوس (540–475ق.م): صاحب النظرية التي اختارت * **النار*** كالمبدأة الأولى لأصل الوجود، والمقصودة بالنار ليست ما ندركها بالحواس، بل هي: * نور إلهية لطيفة حية عاقلة أزلية وأبدية، وحياة العالم وقانونه*

وحسب هذه النظريات الأربع حول أصل الوجود، نجد أنها انتشرت بين فلاسفة ما قبل سقراط في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد إلى أن يتم توقفها في القرن الرابع، حيث ظهرت فيه أعجوبة سقراط ودهشته التي ليست إلا مرحلة البحث عن المعرفة وتأسيس الحقيقة، وهذه الأخيرة، قد غيرت مجرى تاريخ الميتافيزيقا، وحلت محلها حينا من الدهر لم تكن أطروحاتها شيئا مذكورا إلى أن أشرقت ظاهرة تلميذ تلميذه أرسطو فوق سماء آثينا.

بهذه السيرورة الزمكانية إلى القرن العشرين، رفرف علمان من أعلام أضداد الدهشة الميتافيزيقية، الروسي ألكسندر فريدمان والبلجيكي جورج لوماتر، اللذان كانت وما زالت نظريتهما حول أصل الكون «الانفجار العظيم» (Big Bang)جبلا راسخا في القرن الراهن، القرن الواحد و العشرين، وكل هذه كانت نتيجة لنهاية الميتافيزيقا التي أشار إليها جهابذة عصر التنوير بمن فيهم فريدريك نيتشه على سبيل الذكر لقوله المشهور: «**Dieu est mort** !»

وفي كتاب «نهاية الميتافيزيقا ومولود الإنسان الأعلى نحو التأسيس لفلسفة الحياة فيهم فريدريك نيتشه أنموذجا» (1)، نجد فيه أكثر توضيحا بأن موت الإله المقصود هو الإله الكنسي، أي السلطة الدينية التي كانت صاحبة الكلمة الأخيرة، وهمزة الوصل بين المجتمعات المسيحية وبين الرب.

ج/ المرحلة الوضعية:

1. **تعريف المرحلة الوضعية**: فهي المرحلة التي وصل الفكر البشري إلى اقتناع فيها استحالة الإدراك عن معارف مطلقة خفية مع التخلي عن المسائل اللاهوتية والميتافيزيقية، إلى البحث عن قوانين علاقات الأشياء وظواهر مجتمعات الإنسان على سبيل الملاحظة والتجربة الحسية منذ ظهورها في القرن الثامن عشر كنقيض لعلوم اللاهوت والميتافيزيقا، وهكذا ما ذهب إليه صاحب هذه النظرية أوجست كونت (1798 . 1857)

وعلى هذا المنوال، فإن العلم الذي يقوم بدراسة هذه المرحلة هو: سوسيولوجي (sociology) علم الاجتماع، وأنه يقول(1):

«إن الوضعية لا تقر حقا آخر غير حق القيام بالواجب ولا تقر واجبا غير واجبات الكل تجاه الكل، لأنها تنطلق دائماً من وجهة نظر اجتماعية ولا يمكن لها أن تقبل بمفهوم الحق الفردي. فكل حق فردي هو عبثي بقدر ما هو غير أخلاقي».

2 – الفلسفة الوضعية في ظل القرن العشرين والحاضر:

إن عقول القرن العشرين أصبحت آباء أفكار القرن الواحد و العشرين، وظلت الفلسفة الوضعية طبيبة تعالج و تحلل كل صغيرة و كبيرة من أوبئة المرحلة اللاهوتية و الميتافيزيقية، التي لا تستطيع منع تلك الهمجيات والحروب التي مر بها التاريخ، وعلى سبيل الذكر، حرب العالم الثاني والثورة الفرنسية .. بهذا الاضطراب العالمي؛ حاول أو جيست كونت إعادة تنظيم المجتمع الجديد وكذلك تأسيس قوانين اجتماعية لفلسفته الوضعية الإنسانية صدا عن الثوار وأن لا تذهب الحروب بالأخضر و اليابس، وقال كونت في كتابه "السياسة الوضعية": ليحل السلام محل الفوضى فلا بد من ظهور علم يعالج هذا الفوضى، وهذا العلم لا يكون إلا علم الاجتماع الذي قسم كونت مضوعاته إلى قسمين:

– الاستاتيكا الاجتماعية:

تحدث كونت في هذا القسم الضرورية لوجود المجتمع الإنساني القائم بعناصره الثلاثة، وهي: (الفرد والأسرة والدولة) والفرد ليس عنصرا قويا في المجتمع الإنساني، لأن قوته ليست لها فعالية إذا كان هو وحيدا ولا يمثل شيئا في الحياة الاجتماعية، بينما الأسرة هي ماهية المجتمع وثمرته...، "لأنها اتحاد ذو طبيعة أخلاقية" والمبدأ الأساسي في تكوينها هي وظيفتها الجنسية، وعلى الأسرة في المجتمع قانون التضامن الذي لا يتحقق إلا بإصلاح هذه النظام الثلاثة الاجتماعية الأساسية: نظام التربية والتعليم، نظام الأسرة، والنظام السياسي في الدولة.

– الديناميكا الاجتماعية:

يقول أوجست كونت في هذا القسم ضرورية تقديم التقدم العقلي بالتقدم المادي، لأن تاريخ نمو الأفكار يبدو غالبا على أن الإنسان يلبي حاجاته المادية التي دائما تجبره إلى إهمال الجانب العقلي، وهذه لا تتحقق إلا بتحقق الوحدة العقلية.

وبناء على هذه الجولة، قد أصبح علم الاجتماع جبلا راسخا في ظل القرن العشرين، ويعتمد عليه كل الأنظمة السياسية العالمية لحل مشاكل المجتمعات البشرية وتطويرها كما تم تطور الرأسمالي من خلال القرن العشرين إلى القرن الحاضر، وأصبح صاحب الكلمة الأخيرة في عالمنا اليوم بفضل علم الاجتماع.

وهذه الأفكار لأوجست كونت، إنما هي رياح أفكار نهاية القرن العشرين، وروح بداية القرن الواحد والعشرين الذي قد عمت الفوضى والهمجية فيه، وباتت الإنسانية تحت تهديدات التكنولوجيا، وخطورة العلم...، وظل الإنسان يسأل أين المفر!

الهوامش:

1) كتاب المدخل إلى علم الاجتماع ص09 / ذ.يوسف زكار
2) أنساب الآلهة للمؤلف هسيودس ص36
3) موسوعة الأديان والنحل للمؤلف الأستاذ الدكتور أحمد أحمد غلوش ص126 إلى ص 130
4) في العقيدة والأديان للمؤلف مجموعة من المصنفين ص47،48
5) الأديان في كفة الميزان للمؤلف محمد فؤاد الهاشمي ص21،23
6) اللاهوت الصوفي للمؤلف ديويسوس ص23،47

7) مدينة الإله للمؤلف القديس أوغسطين ص57 إلى ص78
8) دلالة الحائرين للمؤلف موسى بن ميمون ص76 إلى ص125
9) تهافت التهافت للمؤلف ابن رشد
10) فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال للمؤلف ابن رشد
11) ما بعد الطبيعة للمؤلف الفيلسوف أرسطو
12) مجلة عالم الفكر العدد 192 ص5
13) الفلسفة اليونانية من طليس إلى أفلطون دراسة مصدرية للمؤلف الدكتور مجدي السيد أحمد كيلاني ص19،20،21
14) نهاية الميتافيزيقا ومولود الإنسان الأعلى نحو تأسيس لفلسفة الحياة فريدك نيتشه أنموذجا للمؤلف سويرت بن عمر ص14
15) The course on positive philosiphy/Auguste Comte (دروس في الفلسفة الوضعية لأجست كونت) ص16